ابن حزم الفقيه أديبا

أ. زينب بوصبيعة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة.

الأندلس العربية الإسلامية حضارة رفيعة، لمعت في سماء الغرب، فكانت مهدا للفكر المنطلق، والعلم المتطور، والأدب الرفيع المتجدد، نبغ فيها علماء ومفكرون وفلاسفة، خلقوا جنّة للفكر وواحة للعقل، كما كان فيها أدباء وشعراء ملأوا رحابها سحرا وإبداعا. ومن أولئك العباقرة الأفذاذ، ابن حزم الفقيه القرطبي، المجدد في التفكير الديني، والمصلح الاجتماعي، المؤرخ والناقد الفيلسوف، الرجل الذي ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، فتعددت نواحي شخصيته، وتنوعت مجالات نشاطه، وأدلى بدلوه في جل ألوان المعرفة. قامت شهرته على المصنفات التي تدور في معظمها حول علوم الفقه والقرآن الكريم، ومع ذلك فقد خلف تراثا أدبيا يجعله في منزلة الأدباء المجيدين، والشعراء الجيدين.

وفي هذا البحث سنحاول أن نسلط الضوء على ابن حزم الأديب الشاعر، في بيئته وزمانه، حيث كان للشعر دولة، وللشعراء متسع، وللأدب رسالة، وللثقافة الإسلامية سلطان.

حياته وشخصيته:

ولد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن خلف بن سفيان بن يزيد الفارسي، مولى يزيد بن أبي سفيان في مدينة قرطبة، في آخر ليلة من شهر رمضان، سنة أربعة وثمانين وثلاثمائة[1]. في أسرة ذات مجد سياسي رفيع، فابوه أحمد كان من أكبر وزراء الدولة العامرية، إذ ولي الوزارة للحاجب المنصور بن أبي عامر، ثم لابنه المظفر[2].

وعاش ابن حزم حياة طفولة منعمة، في قصر من قصور أبيه بالزاهرة، المدينة الجميلة الارستقراطية[3]، وأتيحت له فيها فرص التعلم على أيدي الجواري اللائي كن على حظ كبير من الثقافة، وتلقى على أيديهن دروسه وعلومه الأولى في القرآن الكريم، والشعر والخط، ولما بلغ الثانية عشرة راح والده يصطحبه معه إلى المجالس العامة بالقصر ليستمع إلى الشعر ويتذوقه[4]، فأفاد من ذلك فائدة جمة، وتفتحت قدراته ومواهبه، ووجد الشاب حوله جمهرة من المعلمين في مختلف ألوان الثقافة والفكر، فأقبل ينهل من تلك العلوم بشغف كبير، إلى أن عصفت الاضطرابات السياسية بالدولة العامرية، ولقيت أسرة ابن حزم عناء، لما لها من سابقة مع بني أمية، وما في نفوسهم إليهم من ميل[5]، إلاّ أن ذلك لم يمنعه من مواصلة التعليم والتحصيل.

وهكذا قضى حياته الأولى في قرطبة، قاعدة الأندلس، وأم مدائنها، ومستقر الخلافة الأموية[6]، وقدر له أن يرى سقوط الخلافة، ويعيش الفترة المخزنة التي صاحبت السقوط -خلال فترة الانتقال من العصر الأموي إلى عصر ملوك الطوائف- فجاءت حياته رمزا لحياة الأندلس على أيامه، بكل ما فيها من عز وترف، وحزن وقلق وألم.

شارك في السياسة، وتقلد الوزارة -ولكن وزارته لم تطل- وامتحن بالسجن والتشرد[7]، غير أن نفسه الطموحة، حلقت به في عالم الفكر والأدب، فاعتزل السياسة، وزهد في الدنيا وهو في عز شبابه، وتفرغ للعلم والتأليف، ورأى أن مجاله الصحيح يجب أن يكون في ميدان الفكر، ومداواة النفوس، وتقويم الأخلاق، ومقارعة أصحاب الملل والأهواء والنحل، دفاعا عن الإسلام ومبادئه السامية.

وبدأ مرحلة جديدة من الحياة، خاض فيها معركة الفكر، ودعا إلى مذهبه وفلسفته، غير مبال -هذه المرة- بالمصاعب، ولا مكترث بالأعداء الكثيرين[8]، وظل على ذلك إلى أن توفي سنة 456هـ.

وكان ابن حزم في عصره صوتا يغاير ما كان عليه جمهرة فقهاء الأندلس، حيث كان المذهب السائد هو مذهب الإمام مالك. لكن ابن حزم تمذهب في أول حياته بمذهب الإمام الشافعي، ثم مال إلى المذهب الظاهري، فاحتج له وألف فيه، وأصبحت مؤلفاته في هذا الباب من أهم المصادر التي يرجع إليها[9]. وقد كان لهذا التمذهب أثره على حياته، إذ راح ينتقل بين مختلف البلاد الأندلسية، يجادل أهل الديانات، ويناظر الفقهاء، وكانت مهاجماته قاسية لاذعة، فتألبت عليه مجموعة من رجال عصره، ووشوا به إلى صاحب إشبيلية المعتضد بن عباد، وحرضوه عليه، فأحرق كتبه، ولكن ذلك لم يزده إلاّ بصيرة في نشرها، وجدالا للمعاند فيها[10]، فقال:

فإن تحريقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ويترل إن أنزل ويدفن في قبري

دعوني من إحراق رقّ وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري[11]

واصطلى ابن حزم بنيران الفتن، التي كان له دور فعال فيها، سواء في مجال السياسة، أو في مجال الفكر والعقيدة، وحاصرته المحن والنكبات، فقد توفي أخوه ثم

توفي والده، ففقد به شيخا وأستاذا وسندا كبيرا، كما امتحن بوفاة "نعم" المرأة التي أحبّها[12].

وقد اجتاحت حياته هذه النكبات كلها وهو شاب لم يبلغ سن العشرين بعد، وغم ذلك فقد واجهها بشخصية قوية، وإرادة صلبة جبارة وترك قرطبة مسقط رأسه، ومرتع صباه مكرها ومهاجرا.

أما في شيخوخته فقد تعرض للملاحقة والسخط والقلق، وأصبح مشردا يجوب ممالك الطوائف الفاسدة، الغارقة في الملذات والملاهي، والتي كانت تمزقها الخلافات الحادة، وانعكس ذلك على أفكاره، وكان ذا أثر بالغ في شخصيته الغضوب العنيفة[13]، تلك الشخصية التي جمعت كل المزايا والصفات، وجعلته -في حياته- بغيضا إلى غيره، مثيرا للنقمة، موغرا للصدور، وكثر أعداؤه من الخاصة والعامة، بسبب صلابته واستقلاله في الرأي، وحريته في الفكر، وكان يحب الجدل ومقارعة الأنداد، ويجد في تحديهم لذة «حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالأوا على بغضه، وردّوا قوله، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من لبلة، وهما توفي...»[14] وتفرق عنه الأصحاب، وجلهم من الطبقة العليا في المجتمع، من رجال الأدب والشعر، والمشتغلين بالفقه، ولم يبق حوله سوى صغار الطلبة الذين يعيشون في تلك القرية، ورغم ذلك ظل يؤلف ويصنف ويعلم -على قلة تلاميذه- حتى قضى نحبه، وانتهى من هموم الدنيا، تاركا آثاره للباحثين، وقد قال: «...وأعلم أنك لا تورث العلم إلا من يكسبك الحسنات وأنت ميت، والذكر الطيب وأنت رميم»[15].

ثقافته ومؤلفاته:

كان ابن حزم ذا علم غزير وثقافة واسعة شاملة لأنواع المعارف، و«كان حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متقنا في

علوم جمّة، عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا بعد الرياسة»[16].وقد عرف منذ صباه بصفاء النفس ورقة الشمائل، وشغف بالعلم، إذ كان لا يترك شيئا يفوته دون تقييد أو تسجيل، فصار مصنفا كبيرا ومبدعا في جميع فروع المعرفة، وقد وصفه ابن حيان فقال: «كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب مع مشاركة في كثير من التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة»[17]. وابن بسام يصفه بالبحر الذي لا تكف غواربه ولا يروى شاربه[18]. ولعل ذلك ما يجعل الدارس يجد صعوبة في استقصاء ثقافة، وتعيين المجالات العلمية التي برع فيها، وتجمع الروايات التي بيّن أيدينا على الإشادة بفضله وعلمه، ومواظبته على التأليف. ولعل نظرة في رسالته "في فضل الأندلس وذكر رجالها"، كافية للدلالة على سعة اطلاعه وعمق ثقافته، إذ استعرض فيها جل المعارف والمصنفات السائدة في عصره، وقومها تقويم العالم الخبير بخفاياها وخباياها. وتلك الثقافة الشمولية جعلت منه دائرة معارف متنوعة[19]، وشملت تصانيفه الكثيرة كل الفروع المعرفة – تقريبا- ويروى صاعد عن أبي رافع الفضل بن حزم «أن مبلغ تواليفه في الفقه والحديث، والأصول والنحل والملل، وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب، والرد على المعارض، نحو أربعمائة مجلدا تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة»[20]، وقد نشر عدد من هذه المؤلفات، وقسم كبير منها ما زال ينتظر. ومن أشهر تلك المصنفات نذكر:

-إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد، وهذا الكتاب ضخم، لخصه، ابن حزم نفسه، ونشر الملخص سعيد الأفغاني في دمشق سنة 1379هـ.

-الإحكام في أصول الأحكام. ذكره ابن خاقان في المطمح بعنوان "الإحكام لأصول الأحكام" ونشر بتحقيق، أحمد شاكر في ثمانية أجزاء، بمطبعة السعادة سنة (1345-1348هـ)، ثم طبع مرة أخرى في مطبعة الإمام بمصر، وقوبلت هذه الطبعة على الطبعة السابق.

-التقريب لحد المنطق والمدخل إليه، وقد بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف، واستعمل فيه أمثلة فقهية، وجوامع شرعية، مخالفا أرسطو طاليس واضع هذا العلم في بعض الأصول.

-كتاب الإيصال إلى فهم الخصال.

-الفصل في الملل والأهواء والنحل، ويعد من أهم المؤلفات العربية في تاريخ الأديان، وهو من أشهر كتبه، ذكره ياقوت الحموي بعنوان: "الفصل بين أهل الآراء والنحل"، والمقرى بعنوان "الفصل بين أهل الأهواء والنحل".

-المحلى بالآثار في شرح المحلى بالاختصار، طبع لأول مرة بتحقيق أحمد شاكر من ج1 إلى ج6، وبتحقيق عبد الرحمن الجزري عام 1349هـ. وبتحقيق محمد منير الدمشقي من ج8 إلى ج11، سنة 1352هـ.

-الصادع والرادع، في الرد على من كفر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على من قال بالتقليد.

-كشف الالتباس ما بين الظاهر وأصحاب القياس، ذكره ابن بسام.

-جوامع السيرة، طبع بدار المعارف المصرية سنة 1956 بتحقيق: د/إحسان عباس، وناصر الدين الأسد.

-نقط العروس في تواريخ الخلفاء، نشره محققا شوقي ضيف في كلية الآداب، بالجزء الثاني من المجلد الثالث عشر في ديسمبر 1951.

-مراتب العلوم، في كيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض.

-فهرست شيوخ ابن حزم، ذكره ابن خير في الفهرست.

-مداواة النفوس، والمعروف بالأخلاق والسير، نشر مع ترجمة إلى الفرنسية في بيروت عام 1961، ونشرته بالجزائر شركة الشهاب بعنوان: "الأخلاق والسير في مداواة النفوس (د.ت).

-رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور.

-رسالة في ألم الموت وإبطاله.

-الرد على ابن النغريلة اليهودي، نشر بتحقيق إحسان عباس في القاهرة 1960.

-الرد على ابن الإفليلي في شعر المتنبي.

-طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق فاورق سعد، نشر مكتبة الحياة، بيروت[21].

ويضاف إلى مصنفاته ومؤلفاته، عدد من تلامذته الذين ظهر منهم على مسرح الحياة الثقافية بعده:

-الحميدي أبو عبد الله محمد بن نصر، كان شاعرا ومؤرخا حافظا، راوية، والذي أخذ معظم علمه عن ابن حزم.

-ابن دحية، وهو الذي نشر المذهب الظاهري، متأثرا بآراء أستاذه الذي لم يعرفه إلا من كتبه.

-ابن عربي، الصوفي المشهور، والذي ولد بعد وفاة ابن حزم بأكثر من مائة عام، وطبق ذكره الخافقين، واعتنق مذهب ابن حزم في الفقه[22].

أدبـــــــه:

كان ابن حزم أديبا وإن لم يتفرغ للأدب، فهو شاعر وناثر حباه الله بالموهبة والسليقة العربية، والذكاء الوقاد، وقوة الحافظة. ووفقه في توجيه مواهبه نحو العلوم الشرعية وتوظيف قدراته الأدبية لخدمة الشريعة.

وإذا كانت الموهبة الأدبية لدى المسلم تمكنه من خوض غمار الكون والنفس وتفسير غوامضهما، وتخول له إقامة وشائج صافية بين الإنسان والحياة والكون، وتعزز علائق المودة بين الناس، وتقوي الصلة بين العبد وخالقه، فإن ابن حزم قد صدر عن ملكة أصيلة، غذتها وصقلتها ثقافته الواسعة في الشريعة والفلسفة، فكان عالما بالشعر، وله نظرات صائبة تنم عن أفق واسع في نقد الشعر، ومعرفة بالمصنوع والمطبوع منه. ويتضح من رسالته التي عقدها لمراتب العلم، أنه كان ملما بمختلف الاتجاهات الشعرية، وبما نظمه الشعراء السابقون[23].

أما شاعريته فقد تفتحت في سن مبكرة، ولعل ذلك راجع إلى نشأته بين الجواري اللائي علمنه رواية الشعر وتذوقه، بالإضافة إلى كونه عاش في عصر وبيئة تقدر الشعر والشعراء، وأتيح له أن يشهد بعض المجالس الأدبية في قصر العامريين، وهو في مطلع شبابه مع والده الوزير الشاعر الأديب[24]. وقد وصف شاعريته تلميذه الحميدي في قوله: «وكان لشيخنا الفقيه أبي محمد بن حزم في الشعر والأدب نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت أسرع بديهة منه، وشعره كثير، وقد جمعته على حروف المعجم»[25]، إلاّ أن هذا الديوان لم يصلنا، ولعله ما زال مخطوطا.

أما الشعر الذي بيّن أدبنا فهو مبثوث في المصادر، وكتب السير والتراجم، التي أرخت له منه ما هو في شرح الشريشي على مقامات الحريري، وفي الغيث المسجم للصفدي، وطبقات الشافعية للسبكي، والذخيرة لابن بسام، ونفح الطيب للمقري وغيرها. ويعد كتابه "طوق الحمامة" المصدر الرئيسي لشعره الذي نظمه في مرحلة الشباب قبل الثلاثين من عمره.

وإذا كان المؤرخون قد أجمعوا على أن ابن حزم أخذ في دراسة الفقه في سن السادسة والعشرين، حيث تتلمذ على يد عبد الله بن يحي بن دحون، وأبي الوليد بن يونس الصفار. فقد كان قبل تلك السن يظهر لمن يراه فتى مترفا، يعيش وسط الجواري، ويخالط الوزراء ويلهو لهو الكبراء، وكان مسلكه ينبئ بأنه سيكون شاعرا كابن زيدون، أو كاتبا كصديقه أبي عامر بن شهيد، حيث كانا يؤلفان مدرسة أدبية لها طابعها الخاص. إلا أن هناك ظروفا معقدة، وعوامل كثيرة حالت بين ابن حزم وبين سيره في ذلك الاتجاه الأدبي؛ أبرزها أحداث الفتنة وانحلال الدولة الاموية التي كان متشيعا لها، ثم موت ابن شهيد[26].

وابن حزم الأموي الميل، الفقيه، المفكر، عاش وهو شاعر، ولا غرابة في ذلك بل الغرابة ألاّ يكون كذلك، فهو الأندلسي الذي لم يذهب إلى المشرق في رحلة ولا زيارة، وأبعد سفره كان إلى القيروان، حيث أقام مدة قصيرة من الزمان ثم عاد إلى

الأندلس، و لم يغادرها بعد ذلك إلى نهاية حياته. ومن كان مثله مستغرقا في أندلسيته، وكان في بيئته وعصره المتميز بالإقبال على الأدب والشعر، إذ كان الأمراء والخلفاء، والوزراء والنساء والجواري، ورجال العلم، وأهل الفقه والأدب يقرضون الشعر، ويتنافسون في تقريب الشعراء وإكرامهم لنيل مدائحهم[27].

وابن حزم «له في الأدب سبق لا ينكر، وبديهة لا يعلم أنّه روّى فيها ولا فكر وقد أثبت من شعره ما يعلم أنّه أوحد وما مثله فيه أحد»[28].

لقد ارتاض الشعر وهو صبي، قبل أن يبلغ الحلم[29]، وشعره متعدد الأغراض ومتنوع المعاني، ملتصق بحياته وعصره. صور فيه تجاربه الخاصة في الحياة وصدر فيه عن ملكة أصيلة، رودت بالفلسفة والتأمل الواسع، فتراه أحيانا يعجب بالفكرة فيحللها في غير عناء. ويقحم الفكر إقحاما على عواطفه فيتناول أحاسيسه –أحيانا– بالتحليل والتعليل، فيشوه رونقها ويضعف أثرها في نفسه وفي نفس متلقيه.

ورغم ذلك، يظل أندلسيا في شعره، مغرما باللون والشكل واللفظة الحلوة، يستهويه الجمال في النفس، والأزهار والخمائل[30]. ويبلغ حد الرمزية الصوفية في شعر الغزل، وهو الفقيه الظاهري المتشدد في المذهب، وكأنه يهرب أحيانا إلى هذا الجانب الروحاني الغيبي، كلما ضاقت نفسه ذرعا بالتشدد في الأخذ بالظاهر وكان للنظام أثر كبير في هذه النزعة عند شاعرنا[31].

وشعره الذاتي كثير، وما وصلنا منه ينبض بالحياة ويعبر عن إحساس مرهف ومشاعر صادقة، ومنه قصائده التي يفخر فيها بنفسه، ويدافع عن غاياته، ويصور تواطؤ الخصوم عليه، نذكر منه هذه الأبيات التي وجهها إلى ابن عمه عبد الوهاب أبي المغيرة بن حزم:

كفاني ذكر الناس لي ومآثري ... ومالك فيهم يا ابن عمي ذاكر
عدوّي وأشياعي كثير كذاك من ... غدا وهو نفّاع المساعي وضائر
ومالك فيهم من عدوّ فيتقى ... ومالك فيهم من صديق يكاثر

وقولي مسموع له ومصـــــدّق وقولك منبتّ مع الريح طـــائـــر
وإنّي وإن آذيتني وعققتـــنـــي لمحتمل ما جاءني منك صابـــــر[32]

ومن قصيدة له خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة، عبد الرحمن بن بشر، يفخر فيها بالعلم، ويذكر أصناف ما علم، قوله:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنّني من جانب الشرق طالع لجدّ ما ضاع من ذكري النهب

ثم يعتذر من مدح نفسه فيقول:

ولكن في يوسف خير أســـــوة وليس على من بالنبي ائتسى ذنب[33]

أما في وصف تجاربه الشخصية التي هزت نفسه وحركت مشاعره، فيقول في إحدى غرامياته:

سقي الله أياما مضت ولياليا تحاكي لنا النيلوفر الغض في النشر
فأوراقه الأيام حسنا وبهجة وأوسطه الليل المقصـــــر للعمـــــر
لهونا بها في غمرة وتآلـــف ممرّ فلا تدري وتأتي فـــلا تـــدري
فأعقبنا منه زمانا كـــأنـــه ولا شك، حسن العقد أعقب بالـــغـــدر[34]

فالشاعر هنا أندلسي في تشبيهه للأيام السعيدة بالنيلوفر، أما البيت الثالث (لهونا...) فهو تعبير عن تجربة حية، بلغ الشاعر فيه ذروة الشاعرية، حتى إذا وصل إلى البيت الرابع، تحول إلى رجل قانون، يفكر بالعقد، وحسنه، وعواقبه.

وفي هذه القصيدة يمدح أبا بكر هشام بن محمد فيقول:

أليس يحيط الروح فينـــا بكـــل مـــــا دنا وتناءى في حجب الصّـــدر
كذا الدهر جسم وهو في الدهر روحه محيط بما فيه وإن شئت فاستقر

وابن حزم لم يكن شاعر بلاط مداحا، ولا شاعرا يتغنى بالحب والخمرة، وإنما كان شاعرا وجدانيا، صادقا في التعبير عن حياته وإحساساته، ومن شعره الذاتي، الذي صور فيه جانبا من حياته، حينما أبعدته الحوادث السياسية عن مسقط رأسه قرطبـــة،

هذه الأبيات التي حدثنا فيها عمّا ألم به من الخطوب، وكيف واجهها مصورا حاله وترحاله، وتجواله في الآفاق، فيقول:

ولّى فولى جميل الصبر يتبعه صرح الدمع ما تخفيه أضلعه
جسم ملول وقلب آلف فإذا حلّ الفراق عليه فهو موجعه
لم تستقرّ به دار ولا وطن ولا تدفأ منه قط مضجعه
كأنما صيغ من رهو السحاب فما تزال ريح الآفاق تدفعه
كأنما هو توحيد تضيق به نفس الكفور فتأبى حين تودعه[35]

وقد وفق الشاعر في رسم هذه الصورة الشعرية، التي صاغها من رهو السحاب الذي راحت الريح تدفعه إلى الآفاق، محملا بالأحزان والآلام والمرض، وبعد تحليقنا معه في الفضاء الواسع، حملنا -كعادته- إلى صورة أخرى جميلة ذات طابع إسلامي، بلغ فيها حد التجريد، إذ يقول: «كأنما هو توحيد تضيق به...».

وشعره الذاتي الذي يتحدث فيه عن نفسه كثير، وهو في مجمله رقيق ينبض بالحياة، ويعبر عن شاعرية فياضة بالمشاعر والأحاسيس المرهفة، ونذكر منه أبياتا نظمها في الحديث عن نفسه، وقد خيل إليه أنه فارق الحياة، فراح يصف حاله وحالة أصدقائه وخصومه من بعده، متوجها إلى ربه طالبا العفو والمغفرة، فيقول:

كأنك بالزوار لي قد تنادروا وقيل لهم أودى عليّ بن أحمد
فيا ربّ محزون هناك وضاحك وكم أدمع تذرى وخد مخدّد
عفا الله عني يوم أرحل ظاعنا عن الأهل محمولا إلى بطن ملحد
وأترك ما قد كنت مغتبطا به وألقى الذي آنست دهرا بمرصد
فوارا حتى إن كان زادي مقدّما ويا نصبي إن كنت لم أتزوّد[36]

أما شعر الرثاء والتفجع، فلم يصلنا منه إلا القليل، وما بين أيدينا منه، يصور حياته وتجاربه بصدق، ومن الذين رثاهم "نعم" المرأة التي أحبها في بداية شبابه، ونكب

بفقدانها، فماتت وهو دون العشرين من عمره، وحزن عليها حزنا شديدا، وما نسي ذكرها أبدا، ومن مراثيه فيها قوله:

كأني لم آنس بألفاظك التي على عقد الألباب هنّ نوافت
ولم أتحكم في الأماني كأنّني لإفراط ما حكّمت فيهن عابث[37]

أما شعر الحكمة والزهد، فهو كثير، ومعظمه موجود في كتابه "طوق الحمامة" مما يؤكد أنه عرف الزهد في فترة مبكرة من حياته، وهذا اللون من شعره، يغلب عليه أسلوب الوعظ والإرشاد، لأنه شعر تعليمي تخويفي، يدعو الناس فيه إلى التفكير في الموت، ويذكرهم بلقاء الله، ويحقر الدنيا ويدعو إلى عدم الاطمئنان إليها، سعيا منه إلى تطهير النفوس من الشرور والخبائث، وتقوية الصلة بين العابد والمعبود.

ومن مميزات هذا الشعر: التعمق في المعاني، وتوليد بعضها من بعض، ولا غرو فابن حزم فقيه عاش للحياة العقلية، ولعل عنايته بالمعاني هي التي كانت تصرفه عن العناية بالألفاظ إلى الإكثار من الحكم والمواعظ، ويتسم شعره -عامة- بالروح الجدلية وما يتصل بها من التعليلات، فتراه يقحم الفكر إقحاما على عواطفه، ويتناول أحاسيسه بالتعليل والتحليل حتى يشوه رونقها ويضعف أثرها في نفسه ونفس متلقيه[38]، فهو حين يتحدث عن الضنى الذي يصيب العاشق، ويتخذ نفسه مثالا فيقول:

يقول لي الطبيب بغير علم تداو، فأنت يا هذا عليل
ودائي ليس يدريه سوائي وربٌّ قادر ملك جليل
أأكتمه ويكشفه شهيق يلازمني وإطراق طويل
ووجه شاهدات الحزن فيه وجسم كالخيال ضنى نحيل
واثبت ما يكون الأمر يوما بلا شك إذا صحّ الدليل[39]

ولا أظن أن معاصريه كانوا يستسيغون هذا الأسلوب الجاف، أو يجدونه شعريا، فموقفه هنا ينطوي على الاصطناع والاضطراب، وألفاظه تنأى عن العذوبة،

وخياله يرتطم بالواقع، وشأنه في هذه الأبيات هو شأنه في غيرها من القصائد التي نظمها في موضوعات زهدية ودينية[40]، وإذا كان ابن حزم قد أخفق في تمثيل بيئته من حيث النغم الشعري، فإنه مثلها في "اللون" كشاعر فقيه وفيلسوف، تكثر في أشعاره ألفاظ ومصطلحات الفقه، والمنطق وغير ذلك مما يتصل بثقافته ومعارفه الغزيرة المتنوعة، كما تغلب عليه النزعة الروحية، والتي تسمو به أحيانا حتى يبلغ حد الرمزية الصوفية، فنراه يكثر من تسبيح الله عز وجل، وتمجيد صفاته، وله قصيدة في ذلك تبلغ الثمانين بيتا منها:

لك الحمد يا ربّ والشكر ثم ... لك الحمد ما باح بالشكر فم

لك الحمد في كل حالة ... فقد خصني منك فضل وعم

من الماء أنشأتني نطفة ... ومن بعد ذلك لحم ودم

ثم ينتقل إلى حمد الله تعالى على ما علمه من أصول المنطق فيقول:

وعلمتني الحكم في هل وما ... وأطلعتني طلع كيف ولم

وحدّ الحقائق ميزت لي ... من الباطل المتقى في الكلم[41]

والقصيدة طويلة، ذكر فيها البراهين والأدلة العقلية التي تؤكد وحدانية الله عز وجل، كما تذكر بنعمه الكثيرة، مبينا أن أعظمها هي نعمة الإسلام، إذ قال:

فأرسل مرسله بالهدى ... على ما قضاه وما قد حتم[42]

وإذا كان العمل الأدبي في حاجة إلى عبقرية خلاقه، تعيد تشكيل اللغة وتبعثها في أثواب جديدة، فابن حزم الفقيه الجليل، المتضلع في الدين والشريعة، قد حظي بهذا الشرف، فنراه أحيانا لا يكتفي باقتباس بعض الألفاظ القرآنية فقط، بل يتعدى ذلك إلى التأثر بحسن النظم والتأليف، فيلجأ إلى الاستعانة بسورة كاملة، بلفظها ومعناها موسيقاها ويضمنها شعره، مثل ما فعل في هذه القصيدة:

تنبه ليوم قد أظلك ورده ... عصيب يوافي النفس فيها احتضارها

تبرأ فيه منك كلّ مخالط ... وإنّ من الآمال فيه انهيارها

تنادى إلى يوم شـــديد مفـــزع وساعة حشر ليس يخفى اشتهارها
إذا حشرت فيه الوحوش وجمعت صحائفنا وانثال فينا انتشـــارها
وزينت الجنان فيه وأزلفـــت وأذكي من نار الجحيم استعارهـــا[43]

والسورة القرآنية التي ظل الشاعر خلال هذه القصيدة حبيس لفظها ومعناها هي سورة "التكوير" ولعل إدراكه الشاعر لبلاغة القرآن وإعجازه البياني، هو الـذي دفعه للبقاء في رحاب هذه السورة لفظا ومعنى وموسيقى، في خشوع وخضوع. ومن خلال ذلك نستطيع القول: إن ابن حزم كان يستعمل في شعره الألفاظ التي تعتبر عن آرائه وتخدمها، وربما كان هذا سببا من الأسباب التي حالت بين شاعرنا وبين انتقائـه للألفاظ الشعرية الجميلة[44].

ويظل ابن حزم صاحب مذهب حرفي نقد الشعر، ويظل الشعر يحتل مكانـة مرموقة في نفسه طيلة حياته، مع اختلاف في الأساليب والأغراض بين مرحلة الشباب والمشيب، فبعد انقطاعه للعلم والتأليف كان ينظر إلى الشعر على أنه ميـدان للتزعـة الروحية، فهو المنهاج العلمي المتكامل، والإطار العام للمفاهيم الأخلاقية والدينية.

نـــثـــره:

تظهر شاعرية ابن حزم الحقيقية في نثره، أقوى مما تظهر في نظمه، فهو حـين يروى الأشياء التي شاهدها، أو يقص الأحداث التي مرّ بها يحلق بك[45] في أجواء عالية دون كلل أو ملل، فاستمع إليه وهو يصف منازل أهله في قرطبة بعد الفتنة فيقول: «لقد أخبرني بعر الورّاد من قرطبة وقد استخبرته عنهاأنه رأى دورنا ببلاط مغيث، في الجانب الغربي منها وقد أمحت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وخرائـب منقطعة بعد الحسن، وشعابا مفزعة بعد الأمن، مأوى للذئاب، ومعـازف للغـيلان، وملاعب للجان، ومكانا للوحوش، بعد رجال كالليوث....»[46] واتبع ذلك بأبيات،

شعرية في الموضوع نفسه، تلاحظ إذا قارنت بينها وبين نثره، أنه في نثره أشعر منه في نظمه.

ومن أشهر آثاره النثرية: كتاب طوق الحمامة، وكتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس.

-وأما كتاب طوق الحمامة، فيعد أشهر أعماله في شبابه، وهو عبارة عن رسالة كتبها عن الحب، في شاطبة أثناء مرحلة من حياته كان مشغولا فيها بالسياسة، وربما كتبها لملء الفراغ الذي كان يعانيه وهو بعيد عن وطنه.

وتحدث ابن حزم في هذا الكتاب عن ماهية الحب، ومكوناته وفلسفته، وختم ذلك بالحديث عن قبح المعصية، وفضل التعفف. وهو عبارة عن ترجمة ذاتية، لأن ابن حزم استمد نماذجه من تجاربه الخاصة، ومما سمعه أو شاهده بنفسه، وتظهر فيه عبقرية ابن حزم الأدبية في الشعر والنثر، كما تظهر قدرته العلمية في التحليل للنفس البشرية وأهوائها، وتتجلى ثقافته الإسلامية من خلال ذلك التوجيه، البناء للفرد والأمة، المبنى على قواعد الإسلام الصحيحة التي من شأنها تقويم السلوك، وغرس القيم الأخلاقية في النفوس، وضبطها بتربية الضمير الديني، المنبه والحارس للإنسان حتى لا يجمح به الفكر.

والمقطوعات الشعرية والقصائد التي تتخلل الكتاب، متعلقة بتلك القصص والحوادث والأخبار التي رواها ابن حزم.

وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أصالته،من بين الكتب التي تناولت هذا الموضوع في الأدب العربي، وهو كتاب وجداني أخلاقي[47]، ويعد نموذجا للحب المثالي السامي، وللفضيلة الدينية.

ولا يقل أهمية عن هذا الكتاب كتابه: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، إذ يقدم لنا من خلاله أيضا صورة واضحة عن مجتمعه وصفاته الخاصة بصراحة نادرة، والتي كثيرا ما تحوله إلى واعظ ديني يدعو إلى محاربة الشهوات وإحلال الفضيلة مكانها.

والكتابان يعكسان شخصية ابن حزم بكل مظاهرها: العبقرية الأدبية، والثقافة الواسعة، والشخصية المستقيمة السلوك، المخلصة في المواقف. كما يعكس كتاب طوق الحمامة بالإضافة إلى ذلك، خيبة ابن حزم في الوزارة وغراميات الشباب، والصداقات، والانتصارات الأدبية، ويصور لنا بهاء قرطبة أم المدائن، وعاصمة بني أمية في صخبها، وفي أوج عظمتها أيام المنصور بن أبي عامر، وما آلت إليه بعد الفتنة.

وخلاصة القول: هو أن ابن حزم في أدبه، إنسان ارتفع بإنسانيته إلى أعلى المراتب، ولكن ظروف حياته حملته على التفكير والتأمل فشغل بقضايا المجتمع، وراح يعمل على حل المشاكل التي يتعرض لها، فاضطربت الموهبة الشعرية، و لم يبق منها سوى الإنسان الذي راح يطل من أبيات ومقطوعات، وأشرق في مجالات نشاطه الأخرى.

وأن أدبه ما زال بحاجة إلى وقفات، وتأملات متأنية للتعريف به ودراسته واستجلاء مكانته.

الهوامش

[1]-تنظر ترجمته في: وفيات الأعيان، لابن خلكان، مج3، ص13-14. وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، مج3، 299/4. البغية للضبي، ص403. المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد، مج1، ص354. وما بعدها، الصلة لابن بشكوال، ص408. نفح الطيب للمقري، مج4،1، الأنيس المطرب لابن زرع، ص116، وهو الذي انفرد بذكر سنة ميلاده في 383هـ، على أن المصادر الأخرى تجمع على أن ولادته كانت سنة 384هـ. وهذا الأخير هو المرجح. أخبار العلماء والحكماء، للقفطي، صححه وعلق عليه: محمد أمين الخانجي الكتبي، مطبعة السعادة، مصر، (د.ت)، ص156. وغير ذلك من المصادر، والظاهر أن ابن حزم كان مشهورا بين العلماء والأدباء، وحياته لم تتعرض للتلف والضياع كما حصل مع مؤلفاته.

[2]-وفيات الأعيان، المصدر السابق، ج3، ص13.

[3]-الزاهرة مدينة بضواحي قرطبة، بناها المنصور بن أبي عامر سنة 368هـ، وهي مدينة جميلة عرفت بقصورها ودورها وأسواقها. ينظر: نفح الطيب للمقري، ج2، ص113.

[4]-ابن حزم الأندلسي، حياته وأدبه، عبد الكريم خليفة، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، ص30، وما بعدها.

[5]-ابن حزم رائد الفكر العلمي، عبد اللطيف شرارة، المكتب التجاري، بيروت (د.ت)، ص42. وطوق الحمامة في الألفة والألاف. لابن حزم، تقديم وتحقيق: فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص18-19.

[6]-المصدر نفسه، ص18.

[7]-طوق الحمامة، ص251 وما بعدها.

[8]-الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام، تح: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، بيروت، مج1، ج1، ص168.

[9]-المصدر نفسه، 1/1، ص168-169.

[10]-المصدر نفسه، 1/1/، 168. وشذرات الذهب، ج3، ص299.

(11)-الذخيرة، 1/1/، ص171.

(12)-طوق الحمامة، المصدر السابق، ص216.

(13)-مع شعراء الأندلس والمتنبي، سير ودراسات، غرسية عومش، تح: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، 1978، ص112.

(14)-الذخيرة، 1/1/، ص168. والأعلام للزركلي، مج6، ص254.

(15)-ابن حزم رائد الفكر العلمي، المرجع السابق، ص51.

(16)-الأعلام للزركلي، مج6، ص254.

(17)-الذخيرة، 1/1/، ص167.

(18)-الذخيرة، المصدر نفسه.

(19)-ابن حزم رائد الفكر العلمي، المرجع السابق، ص111.

(20)-الأعلام، للزركلي، مج6، ص254.

(21)-ابن حزم حياته وأدبه، خليفه، المرجع السابق، ص128، وما بعدها. وابن حزم رائد الفكر العلمي، شرارة، المرجع السابق، ص111 وما بعدها. ومداواة النفوس -الأخلاق والسير- لابن حزم، ص8، وما بعدها. والمطمح للفتح بن خاقان، تح: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، ط1، ص1403هـ، ص279. والوفيات لابن قنفذ، تح: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، 1980، ص255.

(22)-ابن حزم، رائد الفكر العلمي، المرجع السابق، ص113 وما بعدها.

(23)-ابن حزم حياته وأدبه، عبد الكريم خليفة، المرجع السابق، ص223. وابن حزم، رائد الفكر العلمي، ص57.

(24)-ابن حزم: حياته وأدبه، المرجع السابق، ص224.

(25)-الذخيرة، لابن بسام، المصدر السابق، 1/1، 171.

(26)-ابن حزم رائد الفكر، المرجع السابق، ص63 وما بعدها. والذخيرة، 1/1، 169.

(27)-ابن حزم، رائد الفكر، المرجع نفسه، ص53، وما بعدها.

(28)-مطمح الأنفس، لابن خاقان، المصدر السابق، ص280.

(29)-طوق الحمامة، المصدر السابق، ص80.

(30)-ابن حزم رائد الفكر العلمي، المرجع السابق، ص60.

(31)-تاريخ الأدب الأندسي، عصر سيادة قرطبة، لإحسان عباس، ص263. ابن حزم حياته وأدبه، خليفة، المرجع السابق، ص2335 وما بعدها.

(32)-الذخيرة، 1/1/، ص165.

(33)-المصدر نفسه، ص173.

(34)-طوق الحمامة، المصدر السابق، ص191 وما بعدها.

(35)-المصدر نفسه، ص200 وما بعدها.

(36)-الذخيرة، 1/1، ص172.

(37)-طوق الحمامة، المصدر السابق، ص217.

(38)-ابن حزم رائد الفكر العلمي، المرجع السابق، ص60.

(39)-طوق الحمامة، ص237.

(40)-ابن حزم رائد الفكر العلمي، المرجع السابق، ص60 وتاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، المرجع السابق، ص370.

(41)-المرجع نفسه، ص371.

(42)-طوق الحمامة، المصدر نفسه، ص309.

(43)-ابن حزم حياته وأدبه، خليفة، المرجع السابق، ص260.

(44)-أعمال الأعلام، للسان الدين بن الخطيب، ص106 وما بعدها

(45)-ابن حزم رائد الفكر العلمي، المرجع السابق، ص60 وما بعدها.

(46)-طوق الحمامة، ص222.

(47)-مجلة الأزهر، ج6، مج12، مطبعة الأزهر 1941م، ابن حزم الأندلسي حياته وفلسفته، عبد الحميد سامي، ص342.